الاختبار المسيحي الحقيقي

✠✝✠

الفرح الروحي:

يظل الإنسان المسيحي تائهًا في طريق خلاصه، تتلاقفه أمواج بحر العالم، تُلقيه شمالًا ويمينًا إلى أن يأتي الوقت الذي يتلاقى فيه مع المسيح. فقبل معرفة المسيح يعيش المسيحي حياةً مزدوجة معظمها لنفسه وللعالم وبعضها لله. وتتسم علاقته بالله أو بالمجتمع الكنسي بالسطحيَّة والهشاشة ويغلب عليها المظاهر الدينيَّة المزيَّفة والخدَّاعة. ويظل الإنسان يتعثَّر في سعيه الروحي إلى أن يأتي الوقت الذي يستجيب فيه الإنسان لافتقاد الله. فيبدأ العقل يستنير بكلمات الإنجيل، والروح تتيقَّظ لعمل الروح القدس، ويدخل الإنسان في علاقة حبٍّ مع المسيح، فيسمو فوق آلامه، وتتبدَّل اهتماماته، وتصبح جلُّ تعزياته في الوجود الدائم في محضر الرب، كما يُدرك الخسارة الفادحة التي دفع ثمنها غاليًا عندما كان يعيش لذاته وللذَّاته وللعالم. واختبار العلاقة الحقيقيَّة مع المسيح كفيلٌ بأن يُحوِّل دفَّة الحياة لتتوجَّه توجُّهًا صحيحًا نحو بَرِّ الحياة الأبديَّة. وفي الاختبار الحقيقي مع المسيح يصبح الربُّ قريبًا جدًّا ومُعزِّيًا لنفس الإنسان، وتنمو صداقةٌ ودالَّةٌ وحبٌّ بين قلب الإنسان وقلب الله المُحبِّ الوفي. وبقدر ما يزداد إخلاص الإنسان للمسيح بقدر ما يفتح المسيح كنوز حبِّه ويُغدق على الإنسان فيُغرِّقه في بحر نعمته، ويترك الإنسان نفسه لتيارات النعمة حتى يستشعر شاطئ الأبدية في قلبه.

فعلامة الاختبار المسيحي الحقيقي الأولى والتلاقي الحقيقي مع الرب هي: الفرح الروحي. فرحٌ يُغلِّف القلب كفرح العذراء بميلاد عمانوئيل. فرحٌ كفيلٌ بأن يرفع القلب فوق كلِّ آلام الزمان الحاضر. فرحٌ يتسامى فوق حدود السِّنِّ والثقافة والفقر والمشغوليات التي لا حدَّ لها. والفرح المسيحي هنا هو فرحٌ بالتوبة وبالرجوع لحضن الآب بعد مرارة الغربة عن الوطن وجوع كورة الخنازير. فرح يجعل الدمع ينسكب في هدوء، والقلب يطفر في رصانة، والعين تنفتح على كل ما هو سماوي. إنه فرحٌ جريءٌ يجعل القلب يُضحِّي بكلِّ

ملذَّات العالم في مقابل أن يتلاق مع قلب الله المُحبِّ.

الأُذُن الروحية:

ثم تأتي الخطوة الثانية وهي تتمثل في الإنصات الكامل لكلمات الإنجيل، والاستعداد المُستميت لتنفيذ الوصية، حبًّا في الرب. فبعدما كانت الأُذُن تتلذَّذ بالاستماع لكلمات العالم، تجد اليوم سعادتها في الاختلاء بالإنجيل وإعطاء أكبر وقتٍ للجلوس عند قدمَي الرب. فيُكرِّس الإنسان وقتًا ليقرأ الإنجيل رغم مسؤولياته ومشغولياته. ويجد سعادته وفرحه في طاعة الوصية، ويحسُّ بنِير المسيح الهيِّن وحمله الخفيف: «وَوَصَايَاهُ لَيْسَتْ ثَقِيلَةً» (١يو ٥: ٣). ويشعر المسيحي بقوة عمل الكلمة في داخله فيجد فيها تطهيرًا لقلبه، ويشعر بنفاذها إلى مفرق نفسه وروحه وتمييزها لأفكار القلب ونيَّاته. وبوداعة يقبل أن تنغرس الكلمة في داخل قلبه، فيطمئن لخلاصه. وتنمو الكلمة في قلبه إلى أن تصبح كشجرة عظيمة، فتأتي طيور السماء وتتآوى في أغصانها. وتنثر تقاويها في قلوب مَنْ حولها لتُثمر لحساب ملكوت الله.

الشبع الروحي:

بعد أن يشعر الإنسان بالمسيح يُكلِّمه من خلال الإنجيل، يبدأ يشعر بفطامٍ عن كلِّ ما هو مادي وأرضي، وعن كلِّ ما يُعطِّل روحه عن انطلاقها نحو غرضها السماوي. فيكفُّ عن السعي وراء شهوة الجسد وشهوة العين وتعظُّم المعيشة، ويتسامى فوق شهوات الجسد وغرائزه، ويعيش في العالم كغريبٍ ونزيل لا يشتهي فيه أرضًا ولا موطنًا. ويتنازل عن كلِّ ما يُعوِّق سعيَه الروحي سواءً كان أصدقاء أو أماكن أو تسليات أو غيرها. ويشعر الإنسانُ بنموٍّ روحيٍّ يكبر في داخله، فيجد أن شبعه أصبح في الصلاة بدلًا من الأحاديث العالمية، وسعادته في الهدوء بدلًا من الضوضاء، وفرحه في السُّكوت أكثر من الكلام، ورغبته في الاتحاد بالله أكثر من الشَّهوات، واشتياقاته في خدمة الربِّ أكثر من خدمة رئيس هذا العالم. والربُّ في محبته يفتح وعي الإنسان على العالم الروحي فعِوَض العين الجسديَّة يخلق فيه عينًا روحيَّةً واستنارةً وبصيرةً يستطيع أن يُميِّز بها كلَّ خطوات مسيرته وقراراته. وعِوَض القلب الحجري القديم يخلق فيه الربُّ قلبًا جديدًا نقيًّا لكي يحبَّ الربَّ بصورةٍ أعمق، ولكي يكون له أحشاء رأفات يرقُّ بها لخليقة الله. وبالإجمال، يصير الإنسان خليقةً جديدةً في المسيح: «إِذًا إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ:

الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا» (٢كو ٥: ١٧)، ويعيش في الجسد وكأنه في الملكوت، ويختبر قول الكتاب: «هَا مَلَكُوتُ اللهِ دَاخِلَكُمْ» (لو ١٧: ٢١).

أخيرًا:

"الاختبار المسيحي الحقيقي" أو "العلاقة الحقيقيَّة مع الربِّ" هي حتميَّة روحيَّة لكلِّ مَنْ يريد أن يشعر بقيمة وفاعليَّة المسيح في حياته، وحتميَّة أيضًا لكلِّ مَنْ تعب من المسير وراء ذاته ولم يجد راحة أو سعادة. هي أيضًا حتميَّة روحيَّة لكلِّ مَنْ يريد تذوُّق جمال الرب ووعوده. وضرورة لكلِّ مَنْ يريد أن يعرف بداية ومعالم الطريق الروحي.

يكفينا، يا أخي الحبيب، مُسكِّنات أخذناها ولم تؤتِ ثمارًا فينا، بل أخذتنا من وجودنا الحقيقي وطرحتنا في فراغٍ أكبر. هَلُمَّ نرجع إلى الطبيب الحقيقي لأن عنده دواءنا وفيه شفاؤنا، فهو القائل: «تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ. اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي، لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ. لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ» (مت ١١: ٢٨-٣٠).

****

(بقية المنشور صفحة ١٨ – عظة عن موسم الصوم المقدَّس)

١٢- باعتبار كل ذلك، إذن، أيها الأعزاء المحبوبون، واعتبار القيمة العظيمة لخلاصنا، دعونا نزدري بالإسراف (أو الإفراط) باعتباره غبيًّا ومؤذيًا، ودعونا نعتنق الصوم والمواقف الصائبة معه، ودعونا نُبدي أسلوب حياةٍ مُتجدِّدًا، ونوجِّه أنفسنا يوميًا إلى إنجاز أعمالٍ صالحة. وبتلك الطريقة، إذ نقضي موسم الصوم الكبير المقدَّس كله متصرفين بصالحاتٍ روحية وجامعين ثروةً عظيمةً من الفضيلة؛ نكون بذلك مستحقِّين أن نصل إلى يوم الرب ونقترب بثقةٍ إلى تلك الوليمة الروحية الرهيبة، ونُشارك بضميرٍ نقي في تلك الصالحات التي تفوق الوصف والخالدة؛ إذ نكون ممتلئين من الصوم بالنعمة وبصلوات وشفاعات أولئك المُرضين للمسيح إلهنا المحبوب، الذي له مع الآب والروح القدس المجد والقوة والكرامة الآن وإلى الأبد، آمين.